مقدمة الجسد والعقل والأدب

Introduction Body, Mind and Litrature

يركّز النقد الشعري المعرفي (cognitive) على قراءة النصوص الأدبية. هذه العبارة تبدو شديدة البساطة لدرجة تصل إلى التفاهة، حتى أننا يمكن أن نراها كقالب مكرر، ذلك أن لفظ "النقد" يتعلق بالصناعة الأدبية، أما لفظ *المعرفي* (cognitive) فإنه يختص بالعمليات الذهنية التي يوظفها العقل أثناء القراءة، و"*الشعر*" تتعلق بالصنعة الأدبية. ولكن هذه العبارة البسيطة هي النقطة التي نحتاج للبدء منها حقيقةً.

ولكي نحيط علماً بمضمون هذا الكتاب، يجدر بنا أولاً أن نعرف ما المراد بلفظي "قراءة" و"أدب". إن الجواب على هذا السؤال سوف يبحر بنا إلى أهم القضايا التي تواجهنا باعتبارنا أناساً نتمتع بالوعي والذكاء والقدرة على انتقاد الأشياء، نشترك في اللغة والمعرفة وفي معرض محاولاتنا لمناقشة تلك الأفكار، فإننا لن نكتفي بطرح أسئلة صعبة وهامة، بل سنحاول إيجاد إجابات أو نرسم على الأقل خطوطاً إرشاديةً بإتجاه الحلول.

ولكي نعرف ماذا يحدث في عملية القراءة الأدبية، نحتاج إلى استطلاع أحد النصوص الأدبية، ثم قراءته (وهنا ينبغي أن يكون القارئ مطّلعاً)، وهاكم جزءاً من نص أدبي:

لأننا أحببناه كثيراً اتبعناه وكرمناه.

عشنا في عينه الرائعة الحنون.

تعلمنا لغته العظيمة، أتقنا لهجته الصافية.

جعلناه قدوتنا في الحياة وبعد الممات.

بعدما قرأت تلك الأبيات الأربعة، وبعد ماقرأتها أيضاً، فهي الآن عالقة في ذهنك. خيارنا الأول، هو حفظ ما نتذكر منها في الذهن دون مزيد من المناقشة. في الواقع هذا هو ما يحدث عند الغالبية العظمى من الناس عند قراءة الغالبية العظمى من النصوص الأدبية، فهم يقرءون لمجرد القراءة ولا يتطلعون لمناقشة النص أو إعادة صياغته بإسلوبهم الخاص أو إضفاء الطابع العقلاني عليه أو التعبير عن آرائهم في إطار نظري واضح يُسَّهل على الآخرين قراءته أو سماعه. هذه هي طبيعة الحال في الغالب، نعتبر "القراءة" أحد الأشياء الموجودة في عالمنا، وتلك هي القراءة بإعتبارها ظاهرة طبيعية تماماً.

وكلنا يقرأ بهذا الشكل، لكن هذا الكتاب يدور حول قراءة النصوص الأدبية، إننا نستطيع قراءة تلك النصوص حينما نشاء، لكن عندما نريد أن نفكر في الكيفية التي نقرأ بها ونفكر فيما نقرأ ونعيه جيداً، فبهذه الطريقة تشمل قراءتنا مهارات أخرى، إننا نمارس ما يعرف بعلم القراءة. ولا يقتصر مجال هذا العلم على براعة النص الأدبي أو القارئ، بل إنه يشمل القراءة بوصفها العملية الطبيعية التي تحدث عندما يعيش القارئ مع النص الأدبي وهو بعيد كل البعد عن القراءة العادية التي نمارسها جميعاً. إن كتابة النصوص الأدبية فن وصناعة، لكن القراءة عملية طبيعية.

إن التفسير العلمي للقراءة هو أنها عملية يستطيع المرء من خلالها تعميم النماذج والمبادئ على مختلف القراء والنصوص، على أن فهمنا لطبيعة ما نفعل عند

قراءة الأدب ينبغي ألا يكون فهماً مجرداً أو نظرياً خالصاً أو بشكلٍ بحت. وعلى الرغم من أن كل دراسة علمية تهدف للتوصل إلى فهم واضح ودقيق، فإن الطريق في تلك الدراسة دائماً يشمل التفكير في كثير من المعلومات المشوشة التي ربما تكون متضاربة ولذا فإننا بحاجة إلى أن نلقي اهتماماً بما تتضمنه الكثير من النصوص المختلفة من تفاصيل ومعرفة نوع النص الذي نقرأه، فنهتم ببعضها ونحاول ألا نضعه في قالب مجرد. إن التفاصيل التي تكمن في النص الأدبي هي التي تستهوي القارئ وتثير اهتمامه.

حاول أن توجه لنفسك بعض الأسئلة مثل: ما الذي استوعبته من تلك الأبيات الأربعة السابقة؟ ما هو الموضوع الذي تدور حوله؟ ما مدى أهميتها بالنسبة لك؟ ما الذي استفدته منها؟ بالطبع هذه الأسئلة كلها تعني شيئاً واحداً ولكنها مطروحة بأسلوب مختلف. قد تكون قرأت تلك الأبيات من قبل وأنت الآن تتساءل لماذا ورد الحديث عنها ثانيةً في هذا الموضع؟ قد تكون على علم بكاتب تلك الأبيات أو الأصل الذي أخذت عنه أو تكون لديك خلفية تاريخية عنها وقد تستطيع معرفة الأسلوب الأدبي المتبع في تلك الأبيات والتوصل إلى اسمه وقد تستطيع وصف الأصوات التي تصدرها عند القراءة بصوت مرتفع باستخدام مصطلح يستخدمه أهل الأدب.

إن كل تلك الأسئلة تتعلق بسياق النص الأدبي وهذه نظرية هامة في النقد الشعري المعرفي (cognitive). إن مفهوم السياق يختلف عما إذا كنت قد قرأت تلك الأبيات أثناء الجلوس على أريكة في منتزه أم كنت سائحاً وقرأتها على شواهد أحد القبور في مكان ما أو حتى إذا كنت قرأتها في إحدى الحلقات الدراسية بالمدرسة أو الجامعة، ففي الحالة الأخيرة لا بد أن نعي أن بعض الأسئلة وإجابتها ستلائم الموقف وبعضها لن يكون كذلك. على سبيل المثال، إذا قلت أنك تشعر أن تلك الأبيات كتبت في رثاء أحد الأبطال السالفين، فستكون تلك قضية أطرحها للنقاش في حلقة دراسية.

أما لو قلت أنها تذكرك بقطعة أليفة ماتت وكنت تحبها كثيراً ولكننا سنشعر وجميع الحضور في الحلقة الدراسية، أن هذين التفسيرين لا علاقة لهما بمضمون الأبيات بل فيهما شيء من الغرابة، لكن تُرى ما السبب في ذلك؟ إن الأبيات الأربعة قد تفيد تماماً ذلك المعنى الذي فهمت وقد تدل أنت على صحة تفسيرك من خلال الشاهد فيها، ما هو المعيار الذي يحدد عدم ملاءمة الآراء لإحدى القضايا المطروحة في حلقة دراسية بسبب أنها تدور في نطاق شخصي أو أنها غير وثيقة الصلة بالقضية محل النقاش؟ وعلى أي أساس يميز المرء بين الآراء التي تنتمي للنوع الأول وتلك التي تدور في فَلَك النوع الثاني؟ إنما المعنى الذي تفهم من تلك الأبيات يعتمد كثيراً على ما يعتمل في نفسك ويدور في خلدك عندما تقرأها؟ وفي الواقع فإن تلك الأبيات لا تحمل مضموناً عاماً أو ثابتاً، بل إن فيها من المعاني والمقاصد ما يعادل التفسيرات التي يطلقها مختلف الأشخاص، لكن ملاءمة أي تفسير ترجع إلى السياق والافتراضات التي تدور حول السؤال المطروح، ومن المعتاد عند مناقشة الأدب في محيط جامعي أن يتم تطبيق الافتراضات المتعلقة بنظام الدراسة الأدبية. أحد هذه الافتراضات أن التفسيرات الفردية لا تصلح أن تكون محلاً للنقاش. بيد أنك عندما تودع قطتك التي ترقد ميتة في صندوق حذائك فإنك قد تميل إلى تلاوة تلك الأبيات في تجمع صغير يحضره بعض أصدقائك الذين لهم نفس التجاهك الفكري وعدد من أفراد أسرتك. تنطبق المعايير الخاصة بالملاءمة والسياق على الفروع المختلفة للدراسات الأدبية وعلى سبيل المثال إذا ألقينا نظرة على نص أدبي يدور حول أحداث تاريخية، فإنه يمكنني الجزم بخطأ تفسيرك بأن الأبيات كتبت في رثاء أحد الأبطال السالفين. ففي لحظة تاريخية ما قام الشاعر روبرت براونتج (١٨٤٥) بنظم تلك الأبيات ضمن قصيدة تسمى *القائد الضائع (The Lost Leader)*، حول تحول الشاعر الإنجليزي ووردز وورث من التيار الراديكالي الثوري

حتى صار أحد أبرز المحافظين وظاهر القصيدة رثاء ووردز وورث على الرغم من أنه لا يزال حياً، لكن براونتج قصد اتهامه بالخيانة، حيث يقول في مطلع قصيدته:

لقد تخلى عنا من أجل حفنة من الفضة؛

من أجل وسام يزين به حُلته؛

كما عبر عن تغير قلب وردزورث بقوله:

لن تعرف أيامنا السعادة والصفاء بعده

يسمح هذا النوع من النصوص الأدبية للقارئ بتفسير النص على الوجه الذي يريد، دونما اعتبار لمدى توافق النص مع الحقائق التاريخية المعترف بها، فالقارئ الذي رأى أن النص عن ميلتون أو كوليريدج قد لا يكون على صواب وكذلك القارئ الذي يظن أنها كتبت في أحد ساسة القرن العشرين.

إن هذه القصيدة وتحديداً الأبيات التي بين أيدينا، يمكن أن تفسر من جانب واحد فقط كمثال لوزن معين في فن العروض، فقد أتت تلك الأبيات على وزن رباعي التفاعيل (أي أربعة مقاطع مثقلة يليها مقطع مخفف) في البيت الأول، ارجع إلى الأبيات واقرأها بصوت عال كي تسمع صوتها بنفسك وتشذ القاعدة قليلاً في الأبيات التالية حتى يختل الوزن وبإمكانك حذف المقطعين المثقلين في نهاية البيتين الثاني والرابع للتأكيد بشدة على كلمتي "عين" و"مات" أو تكرار حذف أحد المقاطع المخففة مرتين في البيت الثالث لإصدار سكتة طويلة في منتصف البيت ويستطيع الشاعر التأكيد على معاني بعض الكلمات والتشديد عليه من خلال استخدامه للأوزان الشعرية، الأمر الذي يُبرز مدى براعته واقتداره في القصيدة، كما يمكنه الجمع بين المؤثرات المختلفة من الوزن الشعري والخلفية التاريخية، فإذا كنت تعرف أن الوزن سداسي التفاعيل (الكسندري ويسمى في الإنجليزية Alexandrine) كان هو الطابع الغالب في الملاحم

اليونانية القديمة من أمثال الإلياذة والأوديسية والإنياذة فقد تلاحظ هنا أن براونتج قد خرج على الوزن سداسي التفاعيل واختزل المقاطع المكررة من ستة إلى أربعة في البيت الواحد لخفض رنين الصوت ومن ثم التعبير عن سقوط وردزورث كشخصية بطولية.

ماذا عن التفسيرات الفردية لتلك القصيدة؟ لا بد أن اعترف بأنني لم أعرف الخلفية التاريخية لهذه القصيدة إلا بعد قراءتي لها بعدة سنوات وحدث ذلك عندما سمعتها ثانية تتلى خارج سياقها في برنامج تحليل سياسي على محطة البي بي سي بعد الانتخابات البريطانية عام ١٩٩٢. في هذا الوقت، توقع كان السواد الأعظم من الشعب فوز حزب العمال بزعامة نيل كينوك الذي أعاد الحياة والنشاط لحزبه بعد هزيمته في الانتخابات على مدى ثلاث سنوات، لكن الحزب مُني بهزيمة في تلك الانتخابات مما دفع زعيمه كينوك إلى الاستقالة على الفور. إن تلك الأبيات التي استشهد بها مذيع البي بي سي في سياق مختلف قد أُلبست ثوباً جديداً بهدف تهييج مشاعر مؤيدي حزب العمال من أمثالي. يكون كينوك في هذا السياق الجديد هو القائد الراحل ليس لأنه فضل الخيانة كما هو الحال عند وردزورث ولكن بسبب عدم نجاحه في الانتخابات، وحينئذ يعود البيت القائل "لن تعرف أيامنا الصفاء والسعادة بعده" على الفترة التي تولت فيها حكومة المحافظين زمام الحكم وهي خمس سنوات، ومن هذا المنطلق يمكن أن تكون القصيدة قد كتبت في أحد ساسة القرن العشرين.

من المنظور التاريخي، فإن شخصاً يميل إلى حملها في سياق الإنتاج، قد يرى أن الاستشهاد بالأبيات في هذا السياق السياسي هو استخدامها في غير موضعها وأنه من قبيل الخطأ في الاستشهاد. مع ذلك، فإن الحمل السياسي لتلك القصيدة ليس إلا واحداً من الأوجه التي حملت عليها على مر السنين ويبدو لي أن من المهم إعادة الربط بين مختلف النصوص الأدبية سواء أكانت أكاديمية أم عادية. ومعرفة أنها مرتبطة بالسياق

التي كتبت فيه ولا ترجع بأي حال إلى الآراء الموضوعية. عندما أسأل ما الذي تعنيه القصيدة؟ فأنا أقصد المعنى الذي تدور حوله القصيدة أو بعبارة أخرى ماذا كان الغرض من نظمها وعلى ذلك فإن مجال البحث في الأدب هو المعنى الذي تحمله القصيدة. فمعنى القصيدة هو المعنى المُستخدم.

إن الطريق إلى فهم القضايا المتعلقة بالقيمة الأدبية والحالة والمعنى يكمن في قدرة القارئ على استيعاب النص وفهم السياق والظروف والغرض والمعرفة والمعتقدات وهذا ما يكفله لنا النقد الشعري المعرفي «cognitive». إذ يهتم بالبعد اللغوي للنص، مما يُمكّن القارئ من تحليل الأسلوب والبراعة الأدبية للكاتب على نحو مفصّل شديد الإحكام. إنه يُعد وسيلة لتصوير الأنواع المختلفة للمعرفة والاعتقاد في قالب منهجي وطريقة للربط بين الظروف والغرض من جهة ولغة الأدب من جهة أخرى، كما أنه يقدم نموذجاً للعلاقة القائمة بين لغة الأدب الإبداعية واللغة الإبداعية المتداولة بين الناس في حياتهم. باختصار، يهتم النقد الشعري المعرفي «cognitive» كثيراً بقضية السياق وإلى جانب ذلك فإنه ينظر من زاوية عريضة إلى السياق الذي يشمل الظروف الاجتماعية والشخصية.

تتمثل مبادئ النقد الشعري المعرفي «cognitive» من خلال علم اللغويات المعرفي «cognitive» وعلم النفس المعرفي «cognitive»، وهما معاً يشكلان جزءاً كبيراً في مجال العلم المعرفي «cognitive». نحن بحاجة إلى أن نفهم أن النظريات الأساسية التي تشكل أساس هذه المعارف المبتكرة، حيث إن كل أنماط التعبير والفهم الواعي مرتبطة ببعضها البعض في الظروف البيولوجية التي تحيط بنا وببساطة شديدة فنحن نتبنى أنماطاً معينة لطريقة التفكير لدينا وطرقاً معينة للتعبير عن مختلف آرائنا لأننا جميعاً أوعية ماء وهواء في جسد آدمي لها مستقبلات رئيسة في أعلى الجسد (أي المخ). إن تصوير العقل في

الأعمال الأدبية لم يتناول المعنى الحرفي فحسب، بل إنه امتد للمعنى الاستعاري، مما أذاب التمييز بينه وبين الجسد، الذي تعبر عنه كثير من الاتجاهات الفلسفية ومن أشهرها اتجاهات الفيلسوف رينيه ديكارت ولنأخذ مثالاً بسيطاً (اقترحه علىّ زميلي تونس بيكس): لماذا نستخدم الفعل الإنجليزي Chop Down في قطع الأشجار بينما نستخدم Chop Up لقطع الأخشاب؟ يحتمل أن يكون السبب المعرفي (cognitive) لذلك هو أن الأشجار تكون أكبر حجماً منا وهي حية ولكن عندما نقطعها فإنها تتهاوى إلى الأرض. وهناك تفسير معرفي (cognitive) آخر يقول أن حرفي الجر الدالين على الاتجاه "Up/Down" باعتبارهما مستنبطان من استعارة ضمنية تصف العمل الإيجابي بالعلو والسلبي بالانخفاض ومعرفة أن الأشجار كيانات نافعة عندما تكون حية وأن أخشاب الوقود أكثر نفعاً عندما تؤخذ من الأشجار التي سبق قطعها.

وهذا مثال دقيق لأنه يشير إلى أنه حتى حروف الجر في الأفعال العبارية (في هذا المثال حرفي الجر الأعلى والأسفل (down and up) مرتبطة ببعضها البعض في معرفتنا (cognitive) بالمقام الأول. إن مسألة التصوير تؤثر على كل جزء من اللغة وهذا يعني أن كل خبراتنا، معرفتنا، معتقداتنا ورغباتنا ترد في النماذج اللغوية التي تمتد جذورها إلى وجودنا المادي وتصبح تلك النماذج نافذة للتعبير عنها. إن السبب وراء اشتراك الأفراد في معظم عناصر الوجود (الحاجة إلى الطعام والإحساس بالدفء والرؤية عبر الطيف المرئي ونلتحف بعناصر ثلاثة (الأرض والماء والهواء) وتظلنا الشمس التي تدور حول الأرض فيتعاقب الليل والنهار وهكذا)، يرجع إلى أوجه التشابه العديدة التي تربط بين مختلف اللغات التي ينطق بها البشر. إن إختلاف العناصر الوجودية في بعض المجتمعات (كاختلاف الوظائف التناسلية بين الرجل والمرأة أو إختلاف مستوى التطبيق التقني والمحيط البيئي وأنماط الحياة حول العالم) يمكن أن يكون السبب وراء اختلاف العادات

الفطرية في التعبير. إن النقد الشعري المعرفي (cognitive) لديه قدرة على تقديم تفسير موحد لكل من التفسيرات الفردية وتلك التفسيرات التي تشترك فيها مجموعة من الأفراد أو أحد المجتمعات أو الثقافات.

وسواء من خلال الأدب الشفهي أو المكتوب، فإن معظم الثقافات ترى أن استخدام التعابير الكلامية حالة رفيعة من الفن، ويتضح لنا تقارب النماذج اللغوية الناشئ عن علم النفس المعرفي (cognitive) وبخاصة علم اللغويات المعرفي (cognitive) في مجال الدراسة الأدبية. وعلى هذا فإن النقد الشعري المعرفي (cognitive) وثيق الصلة أيضاً بمجال النقد الأدبي. وفي هذا النطاق تحول محور الاهتمام ليدور حول مثلث الكاتب والنص والقارئ، مع تباين تلك الأضلاع الثلاثة في أهميتها حسب اختلاف التقاليد. يمكن أن يدخل النقد الشعري المعرفي (cognitive) في هذا النطاق، بحيث لا يكون قاصراً على أحد الأضلاع الثلاثة دون غيره. وحيث إن النقد الشعري المعرفي (cognitive) يُعنى بالقراءة الأدبية والبعدين النفسي والاجتماعي على السواء، فإنه يعد وسيلة لمناقشة التفسيرات الخاصة بالنصوص الأدبية، سواء من قبل الكاتب أو القارئ، وطريقة تبين كيف أن تلك التفسيرات تتجلى في النص الأدبي المكتوب، وفي إطار هذا المعنى لا يكون النقد الشعري المعرفي (cognitive) تحولاً بسيطاً في التركيز، بل إعادة تقييم جوهرية للعملية الأدبية برمتها.

وهناك طريقة بسيطة لعمل النقد الشعري المعرفي (cognitive) وهي أن نقتبس بعض النظريات من علم النفس المعرفي (cognitive) وعلم اللغويات المعرفي (cognitive) ثم نتعامل مع الأدب كأنه طرف ثالث في هذا المحور. في الواقع سيكون علينا حينئذ أن ننحى التفسير الانطباعي والتخمين العشوائي جانباً ونجري تحليلاً منهجياً دقيقاً لما يحدث عندما يقرأ أحدنا نصاً أدبياً. فمن وجهة النظر المنهجية سوف نهتم في المقام الأول

بالعلاقات التي تربط بين القراءات الأدبية وغير الأدبية. ولن نعرف شيئاً عن القيمة أو الحالة الأدبية غير أنها مفهوم قائم ونعتبر الاهتمامات الأساسية بالنقد الأدبي على أنها خارج نطاق اهتماماتنا أو على أنها جزء من مجموعة مختلفة من الأنظمة التي كانت تركز على نفس دائرة الاهتمام ولكنها لم تشكل أهمية بالنسبة لنا على أفضل الأحوال ونقطة خاطئة على أسوأ الأحوال وسيبدو الأمر وكأننا نتزحلق على الأمواج أو نصيد الأسماك أو نصنع محركاً توربيدياً يدور بقوة الرياح أو نرسم لوحة فنية باستخدام الألوان المائية، فإننا ننظر في كل الأحوال إلى نفس البقعة من الشاطئ.

إنني أرى أن اعتبار الأدب جزءاً من المعلومات المتوفرة بين يدي القارئ أو الناقد قد لا يكون من النقد الشعري المعرفي (cognitive) في شيء، فهذا الاتجاه من قبيل البحث في علم اللغويات المعرفي (cognitive). إن استنباط النظريات المتعلقة بهذا النظام قد تكون في غاية النفع بالنسبة لمجال النقد الشعري المعرفي (cognitive) ولكننا في إطار النقد الشعري المعرفي (cognitive) نضع السياق في المرتبة الأولى وهذا يعني أن علينا معرفة أشياء حول النظرية النقدية والفلسفة الأدبية وكذلك علم المعرفة (cognition)، كما أنه يعني أن علينا أن نهدف من البداية إلى الإجابة على أهم الأسئلة والقضايا التي احتلت مكاناً في الدراسة الأدبية عبر العديد من الأجيال وأعتقد أن النقد الشعري المعرفي (cognitive) يمهد لنا الطريق لهذه المهمة وسوف أحاول في هذا الكتاب أن أجيب عن السؤال حول ماهية وطبيعة النقد الشعري المعرفي (cognitive) باستعراض نماذج مختلفة منه.

وكما أشرت سابقاً، أخذ المنعطف المعرفي (cognitive) بجدية هو أكبر بكثير من مجرد الاهتمام بدراسة القراءة الأدبية من منطلق علم النفس، بل إن هذا القرار يستلزم التركيز على إعادة تقييم شامل لجميع المعارف التي نفهم من خلالها معنى القراءة

الأدبية والتحليل الأدبي، ورغم كل ذلك فإننا لسنا بحاجة إلى أن نضرب بجميع النظريات السابقة المستقاة من النقد الأدبي والتحليل اللغوي عرض الحائط. إن كثيراً من الأنماط التي يُفهم بها النص الأدبي تمثل نقاط بداية وفيها منفعة كبيرة للدراسة الشعر المعرفي (cognitive) في النص الأدبي والبعض من تلك الأنماط يتطلب قدراً قليلاً من إعادة التوجيه لصياغة طريقة جديدة في النظر إلى القراءة الأدبية. قد يبدو وفي بعض الأحيان ذلك مجرد إعادة قولبة الأفكار القديمة وإعطائها مسميات جديدة. ويمكنني أن أجادل (كما في اللغويات المعرفية (cognitive)) بأن المسميات الجديدة أجبرتنا على استخلاص مفاهيم الاشياء بطريقة مختلفة.

على أية حال، فالكتاب الذي بين أيديكم كتاب أكاديمي وقد قدمته بتلك الطريقة ولم أجعله كتاباً مرجعياً كي أقدم الأفكار المعقدة بطريقة يسيرة وعملية. وقد أردت بتحديد المصطلحات وتعريفاتها تلك المقدمة التي عرضها التمهيد لمحتوى الكتاب وليس تبسيط تلك المصطلحات، على الرغم من أن ذلك ليس هو الحل ولمساعدتك على فهم المصطلحات الجديدة هناك مسرد بالمصطلحات أوردته في نهاية الكتاب يقدم تعريفاً للمصطلح داخل السياق الذي ذُكر فيه. وأعتقد أن هذا سيكون أكثر فائدة من سرد التعريفات دون ربط المصطلحات بالسياق. وعلى الرغم من هذا فإن من المهم أن هذه الطريقة هي نقطة بداية لك للتفكير وطريقة لتنظيم الأفكار على نحو منهجي، وليست، كما نعتقد، مجرد قائمة بالمصطلحات. وقد حاولت بين ثنايا هذا الكتاب تشجيع القارئ على تحوير المصطلحات وإعطائها تعريفات جديدة وإبداء رأيي فيها وبحثها حتى تصبح يسيرة الفهم. على الرغم من وجود إطارات عمل كثيرة مختلفة عن علم المعرفة (cognitive)، فإن النقد الشعري المعرفي (cognitive) هو طريقة تفكير في الأدب أكثر من كونه إطاراً للعمل.

من بين الأنواع المتعددة للنقد الأدبي، يقف النقد الشعري المعرفي (cognitive) على صلة وثيقة بعلم الأسلوب (ويطلق عليه في بعض الأحيان اسم "علم اللغة الأدبي" وقد نلاحظ أيضاً أنه يطلق عليه اسم "علم الأسلوب المعرفي (cognitive)" في بعض المواضع). إن الانطباع العام الذي يحمله الناس فيما يخص علم الأسلوب هو أن هذا العلم يهتم بوصف الخصائص اللغوية لنص ما بصورة آلية لا مجال فيها للتقييم ومع ذلك فإن غالبية علماء الأسلوب البارزين قد عرفوا أهمية السياق الأدبي في استكشاف التأثير الأدبي والقيمة الأدبية للنص. وكانت المشكلة بالنسبة لهم منذ خمسة وعشرين عاماً مضت هي أن علم اللغويات كان يركز أساساً على توفير أطر تحليلية لعلم الصوتيات وعلم الإعراب وعلم المعاني. فلقد واجه أولئك العلماء مشكلة وهي أن علم اللغة يهتم في الأساس بتقديم إطارات تحليلية؛ الأمر الذي يعني أنهم كانوا يهتمون في بادئ الأمر بتحليل الشعر (تحديداً القصائد القصيرة) ثم صاروا يميلون إلى عدم الاهتمام بفحوى النص وأصبحوا يمرون عليه مرور الكرام. مع إسهام علم اللغة في تطوير إطارات لفهم التأثير السياقي على المعنى (في صورة براجماتية اللغة وتحليل النص والمناسبة التي قيل فيها وتحليل المحادثة) أصبح علم الأسلوب قادراً على إنتاج مناقشات أكثر تعقيداً وثراءاً للنثر الخيالي وغير الخيالي والدراما. بدأ علم الأسلوب في السنوات الأخيرة يهتم بالتطورات في علم اللغويات المعرفي (cognitive) ليعيد تقييم الدور الذي يلعبه في أعمال اللغة الأدبية.

يدور جدل في الوقت الحاضر عن حالة التحليل الأسلوبي لأحد الأعمال الأدبية. وكما هو الحال في تطبيقات علم اللغويات المعرفي (cognitive)، فإن علم الأسلوب لديه الجوانب اللغوية والأدبية الخاصة به. غالباً ما يهتم علم الأسلوب اللغوي ليس فقط بالنصوص الأدبية ولكنه يُعد أيضاً فرعاً من فروع دراسة اللغة مع

الأدب كأحد الجوانب العديدة لدراسة اللغة. وينشأ علم الأسلوب الأدبي من التحليل الأدبي ولكنه يستخدم مناهج وإطارات يطورها علم اللغويات في سياقات غير أدبية. حيث تم إيضاح أنه لا يوجد ثمة اختلاف جوهري في شكل اللغة الأدبية، فمن المعقول والآمن فحص لغة الأدب باستخدام المناهج المنبثقة عن النظام اللغوي بصفة عامة.

تظل القضية الأكثر جدلاً هي حالة النتائج المترتبة على تطبيق النقد الشعري المعرفي (cognitive) والاستكشافات الأسلوبية. فمن جهة يمكن لقائل أن يقول أن القراء يتوصلون إلى تفسير أولي للنص الأدبي قبل الشروع في تحليله ومن ثم يكون الغرض من تحليل النص الأدبي باستخدام النقد الشعري المعرفي (cognitive) هو توضيح الطريقة التي توصل بها قارئ ما لتفسير ما في مناسبة ما. من هذا المنظور فإن النقد الشعري المعرفي (cognitive) ليس له أية قدرة تنبؤية ولا يمكنه عمل التفسيرات للنص من تلقاء نفسه وفائدة هذا الرأي هو أنه يمكن أن نقيم حجة على النصوص الأدبية نفسها، إذا نوقشت بأمانة وذلك عن طريق الرجوع إلى الإطار العام للنقد الشعري المعرفي (cognitive) ومصطلحاته. الأمر الذي يعني إمكانية إستمرار المناقشة بشكل منهجي على أساس لغة مشتركة.

قد يقول قائل أن عملية الانخراط في تحليل النصوص الأدبية من خلال النقد الشعري المعرفي (cognitive) تتيح زيادة الوعي بنماذج معينة قد تكون دون نطاق الوعي أو لم تتم ملاحظتها على الإطلاق. وبناءً عليه، فإن النقد الشعري المعرفي (cognitive) له قدرة مثمرة على الأقل في اقتراح تفسير جديد. هذا المنظور هو الأكثر جوهرية لكنه يحمل تحدياً يكمن في أن النقد الشعري المعرفي (cognitive) يبدو أنه يقترح أن بعض التفسيرات ليست متاحة إلا للمحللين المطلعين على النقد الشعري المعرفي (cognitive)، ولهذا المنظور تبعاته المؤسفة لانه يقترح ضمنياً بأن التفسيرات السابقة خاطئة وان

التفسيرات المطلعة على النقد المعرفي (cognitively-aware) هي الصحيحة.

ونفهم من الرأيين السابقين أن النقد الشعري المعرفي (cognitive) هو وسيلة نقد تفرض قيوداً صارمة على النص بحيث توصد الباب أمام كثير من التفسيرات بحجة أنها غير صالحة أو هو إطار مفتوح بشكل لا ينتهي ولا مجال فيه للتنبؤات ويفتح الباب أمام جميع التفسيرات مهما كانت، حتى ينتهي بكونه نموذجاً لشيء عديم الأهمية. ثمة طريقة لحل هذه المشكلة وهي ملاحظة الفرق بين مصطلح "قراءة" ومصطلح "تفسير"، فالأخير هو ما يفعله القراء بمجرد البدء في الإطلاع على النص الأدبي (أو ربما قبل ذلك بقليل).

يمكن أن يختلف إحساس القارئ بأثر التجربة بإنطباعات وأحاسيس متعددة ومختلفة يمكن تعديل بعضها أو رفضه. في الحالة الثانية تغلب العملية التحليلية التي تنتج تفسير ما. فبعض التفسيرات (خاصة التي تم رفضها مبكراً) يمكن أن تكون خاطئة بمنتهى البساطة: بمعنى أنها تحتوي على أخطاء لا يؤيدها أي شاهد من النص على الإطلاق. على الرغم من ذلك فإن التفسيرات هي التوصل إلى معنى للنص يكون مقبولاً على المستوى الشخصي وتلك التفسيرات هي التي تجمع بين العوامل الفردية والخصائص الشائعة في مجتمع القارئ فيما يتعلق بتفسير النصوص الأدبية.

حيث إن النقد الشعري المعرفي (cognitive) لديه من القدرة ما يمكنه من الجمع بين التأثيرات الفردية والمجتمعية لكل من اللغة والخبرة، فإنه بذلك يُعد وسيلة لتشكيل مربع تكون أضلاعه تلك العناصر الأربعة. كما أنه يصوغ الطريقة التي من خلالها يتم تشكيل التفسيرات البديهية بحيث ينتج عنها معانٍ يسهل التعبير عنها. إن النقد الشعري المعرفي (cognitive) يقدم نفس الإطار كوسيلة لوصف وبيان تلك التفسيرات.

بعكس النقد الأدبي، فإن النقد الشعري المعرفي (cognitive) لا يحتاج إلى التركيز

بصورة قطعية على الاختلافات الدقيقة بين القراءات. في الواقع، يميل معظم القراء، حتى من المجتمعات التي تتشابه بالكاد من حيث التفسير، إلى الاتفاق، أكثر من الاختلاف، حول قراءات الأدب. فلقد ركز النقد الأدبي على التفاصيل الدقيقة حيث يكون الانحراف أكثر تشويقاً، لكن ثمة نتيجة غير مرجوة لهذا ألا وهي أن النقد الأدبي بدأ يؤكد على الإختلاف والغموض والتناقض والتردد إلى حد كبير. يستطيع النقد الشعري المعرفي (cognitive) احتواء الأمور التي تتعلق بالاختلاف الناتج عن اختلاف القراء ولكنه يتم صياغتها في سياق عام مكون من القيود المختلفة الثقافية والتجريبية والنصية للقراء الواعين الذين يعكفون على قراءة الأدب في العالم الواقعي.

إن النقد الشعري المعرفي (cognitive) لا يزال علماً جديداً نسبياً وذلك على الرغم من أنه يعيد الربط لأشكال التحليل القديمة كعلم البلاغة الكلاسيكي. فقد أُستخدم مصطلح "علم البلاغة المعرفي (cognitive)" على نحو مختصر في الوقت الحاضر وفي الحقيقة يجمع هذا الفرع من العلوم الفروع الثلاثة الأكاديمية الكلاسيكية المتمثلة في علم البلاغة وعلم النحو والمنطق. يتعين التأكيد مراراً على أن النتيجة الكبرى لتناول المنعطف المعرفي (cognitive) بجدية يتضمن إعادة تقييم جذري لجميع تلك المصطلحات. فاختيار الكلمات وأشكال القوالب النصية ونماذج الاستنتاج المنطقي كلها عناصر متشابكة ومرتبطة ببعضها البعض عندما يتم تناولها من خلال العلم المعرفي (cognition). أصبحت "الشعر" في نظرية الأدب الحديثة تشير إلى نظرية أو نظام، إلا أنني أميل إلى جعلها تشير إلى "الشعر" وهو المعنى المستوحى لهذا المصطلح من مفهومه ويدل على عملية إبداع موجودة أصلاً في التفكير في هذا المجال.

مثلما يحدث في جميع المجالات الجديدة، بدأت تقاليد مختلفة في الظهور في مجال النقد الشعري المعرفي (cognitive). فقد استخدمت العبارة ذاتها في معنى شديد الإيجاز

والخصوصية على يد ريوفين تسور في نظريته عن الشعر المعرفية (cognitive)، كما تم تطبيقه في إطار أوسع على أي من المناهج الخاصة بالصناعة الأدبية التي تأخذ نماذج من العلم المعرفي وتستخدمها كإطارات وصفية لها.

إن هذا الكتاب يتناول الرؤية العريضة لهذا الحقل ولذا فإنني لا يمكن أن أدّعي أنه دراسة شاملة، فعلى سبيل المثال هناك تحليلات توضيحية للشعر ولكن على الرغم من ذلك فإن هذا الكتاب لا يمكنه عمل تحليل شامل للمعنى الخاص بالشعر. وقد وضعت أمامك قائمة النصوص الرئيسة في الشعر المعرفي (cognitive) والتي أدرجتها بعد الفصل الأخير وهذه الأعمال تعد مراجع يجدر بك الرجوع إليها بعد الانتهاء من هذا الكتاب.

ركزت المناهج المختلفة في هذا المجال على النماذج الأسلوبية والإقناعية (الأسلوب البلاغي) من ناحية أو التقديم النحوي للأشكال المفاهيمية (النحو والمنطق) من ناحية أخرى وعلى الرغم من أن كلاً من الوجهين مكمل للآخر، فإن العديد من علماء اللغة عكفوا على مناقشة القضايا المماثلة وابتكروا طرقاً مختلفة لحل تلك القضايا. تركز فهم النقد الشعري المعرفي (cognitive) في أمريكا بشكل كبير حول علم اللغويات المعرفي (cognitive)، الذي أصبح وسيلة هامة يستطيع من خلالها اللغويون الانخراط في الدراسة اللغوية التي لا تتبع المنهج التوليدي الذي قال به تشومسكي. وقد أظهر المثال الأمريكي براعته في جميع أرجاء العالم ولاسيما في الارتقاء بجاذبية النقد الشعري المعرفي (cognitive) للزملاء في مناحي الدراسة الأدبية، حيث ركز هذا المثال بصورة رئيسة على الجوانب اللغوية المتعلقة بالاستعارة والأشكال المفاهيمية والقضايا المتعلقة بالإشارة.

إزدهر علم الأسلوب في أوروبا وأستراليا ولكنه لا يلقى إقبالاً كبيراً على تناوله

ودراسته في أمريكا حتى الوقت الحاضر. وحيث إن النقد الشعري المعرفي (cognitive) استطاع من خلال علم الأسلوب أن يجد من يتحمس له خارج أمريكا، فلا عجب إذاً عندما نعرف أنه انتشر في هذه الأجزاء من العالم على نطاق وجرى فهمه على نطاق أوسع وأرحب. لم يضطر الممارسين للنقد الشعري المعرفي (cognitive) إلى خوض نفس المعارك المؤسسية في أقسامهم في أوروبا وأستراليا حيث لم يسيطر المذهب التوليدي كما فعل المذهب اللغوي. لقد تضمن مذهب النقد الشعري المعرفي (cognitive) مجالات المذهب الأمريكي ولكنه يقول أيضاً بأن المذهب الأخير يتضمن تلك القضايا العالمية كالعرض وتفسير القارئ وتقييمه والاهتمامات الأخرى المتعلقة بالأدب كعلم السرد ونظرية الفهم. مع تطور هذا المجال، فمن المؤكد أن تزيد الصلة والعلاقة بين هذين المذهبين. من المثير أن نلاحظ أن في تلك الأجزاء من العالم، حيث يتضح التأثير الأوربي والأمريكي (خاصة في منطقة الشرق الأدنى)، الوجود القوي لمزيج غني من التطبيقات للشعريات المعرفية (cognitive).

حاولت في هذا الكتاب أن أعرض هذا المجال بطريقة مفهومة على قدر المستطاع حيث يتناول كل فصل إحدى الخصائص النظرية البارزة من علم اللغويات المعرفي (cognitive) ويعالجها كموضوع رئيس، وقد سردت الأفكار والمصطلحات الرئيسة بالتفصيل. ترتبط تلك المفاهيم اللغوية المعرفية (cognitive) بالسياق الأدبي كي تضع تركيزاً شعرياً معرفياً (cognitive) وتحديد طريقة واضحة لكيفية قيام المجال الخاص في النقد الشعري المعرفي (cognitive) بمواجهة القضايا الأدبية البارزة. لقد حاولت من خلال هذا الكتاب المزج بين القضايا الرئيسة للقراءة الأدبية (كالنغمة السائدة في النص الأدبي ومدى ظهور النبرة الأدبية فيه والطابع الغالب عليه وطريقة سرده والاستعارة والحبكة الأدبية وغيرها) والنموذج المعرفي (cognitive) الذي يحتويها على الوجه الأمثل.

استخدمت، في الفصل التالي، الظاهرة المعرفية (cognitive) الأساسية للشكل والخلفية كنموذج توضيحي يبين لنا النظرية الأدبية. يأتي الفصل الثالث ليوضح أهمية النموذج الأولي لفكرة تصنيف الحركات الأدبية. يتناول الفصل الرابع الروائيين والمؤلفين والقراء والشخصيات والصوت الشعري والتي يتم فهمها من خلال التحول المعرفي (cognitive) لنسبة الإشارة. يشرح علم النحو المعرفي (cognitive) تقييماً للتحليل الأسلوبي القريب في الفصل الخامس، ثم يأتي الفصل السادس ليطبق إحدى النظريات المعرفية الأولية الخاصة بالنصوص المكتوبة والمخططات كوسيلة لمناقشة التوقعات الأدبية والنوع الأدبي. لقد كان للنظرية العالمية أكبر الأثر في النقد الشعري المعرفي (cognitive) ولذا فإن الفصل السابع يركز على عوالم المناسبة والعوالم الممكنة والفراغات العقلية المتعلقة بالقالب الخيالي والواقعي والإشارة. يوضح الفصل الثامن قوة الاستعارة المفاهيمية في التشكيل الأدبي لأنظمة القيم ويطور الفصل التاسع هذه النقطة من خلال فكرة الحكايات الرمزية. ثم يعود بنا الفصل العاشر إلى فكرة النظرية العالمية لإلقاء نظرة على التشكيل الروائي والحبكة الروائية في عملية القراءة وتعقب الأحداث المتسلسلة والشخصيات؛ ليتم مناقشة هذه الفكرة بصورة آلية وإجرائية في الفصل الحادي عشر.

يجب ملاحظة خلال هذا الكتاب أنني قدمت كل نقطة في النقد الشعري المعرفي (cognitive) في إطار واضح ومحدد وفي بعض الأحيان يكون هذا اتجاهاً معقولاً إذ أنه يتوافق مع عمل أحد المؤلفين أو مجموعة من الزملاء الذي يعملون سوياً عن قرب. لكن في أحيان أخرى، كان عليّ أن أقرر الطريقة المثلى لتقديم منهج يسيطر عليه الجدل أو الخلاف. وبدلاً من أن أثير حيرتكم بتقديم مفهوم ما وإثارة الشكوك حوله، قررت أن أحدد الأفكار بأبسط طريقة ممكنة وفي حالة وجود آراء بديلة أحاول أن أطبق

تلك الآراء على مجال الأدب. يبدو لي أن هذا الأسلوب، على أية حال، يسيطر على الطبيعة والقيمة العملية للنقد الشعري المعرفي (cognitive) باعتبارها شكلاً تطبيقياً في الاستكشاف. في الجزء الخاص بالقراءات الأخرى في نهاية كل فصل، سوف تكون قادراً على أن تتعقب لنفسك الأفكار التي قدمتها خلال الفصل.

إن طريقة السرد تتشابه في كل الفصول، ففي بداية الفصل أوردت شرحاً وصفياً لإطار النقد الشعري المعرفي (cognitive) وتناولت هذه النقطة بضرب القليل من الأمثلة لأوضح المصطلحات والأفكار الرئيسة وهو مرتبط بالاهتمامات الرئيسة في مجال الأدب. يعقب هذا الجزء بعض القضايا التي هي محل الإعتبار والنقاط التي هي موضوع النقاش. وقد تعمدت أن أضع تلك الأسئلة صعبة أو مفتوحة لتشجيع القارئ على مناقشتها على نحو أوسع بقدر الإمكان. ثم كتبت في كل فصل تحليلاً جديداً فيما يتعلق بالنقد الشعري المعرفي (cognitive) لأحد النصوص الأدبية للتمثيل على المناقشة التي هي محل الحوار. وقد قصدت من تلك التحليلات التوضيح ولذا لا يمكنني تفصيلها حيث لا يتسع المجال في هذا الكتاب. للاطلاع على المزيد من دراسات الحالة الأكثر استفاضة وتعقيداً فيما يخص تحليل النقد الشعري المعرفي (cognitive)، يجب عليك قراءة كتاب *تطبيقات على النقد الشعري المعرفي (cognitive)* (مراجعة جوانا جافينز وجيرارد ستين ونشر روتليدج وهو كتاب مصاحب لكتابي هذا. يقدم كتاب التطبيقات قراءات في النقد الشعري المعرفي (cognitive) وجميعها دراسات جديدة قام بها العديد والعديد من الشخصيات البارزة في مجال الأدب وتتفق عناوين الفصول مع الفصول في كتابي هذا حتى يتسنى لك قراءتهما سوياً. في النهاية فكلا الفصلين ينتهي باقتراحات للدراسات الإضافية أو نصائح عن اتباع طريقتك الخاصة في البحث مع بيان القراءات الأخرى في المجال الخاص بالفصل لتمكينك من تطوير معرفتك عن النقد الشعري المعرفي (cognitive).

لقد حاولت أن أغطي أكبر قدر من الأنواع الأدبية والفترات التاريخية في هذه التحليلات بقدر الإمكان، الأمر الذي بدا لي هاماً في حال استخدام هذا الكتاب في مجالات أدبية متنوعة. أعتقد أيضاً أن النقد الشعري المعرفي (cognitive) سيكون ذا قيمة إذا كان بإمكانه مناقشة أكثر من النصوص الأدبية التي تبدو سهلة. جاءت التحليلات التي قُدِّمت في هذا الكتاب بغرض التمثيل ولكن ينبغي علينا أن نتناول قضايا أكثر صعوبة وتحدياً. تلك القضايا التي لا تتفق بسهولة مع نظرية النقد الشعري المعرفي (cognitive)، وتلك هي المواقف التي سنركز فيها على عمل إطارات جديدة للنقد الشعري المعرفي (cognitive)، وتلك هي أنواع التحليلات التي سوف تجدها بين طيات كتاب التطبيقات المصاحب.

يجمع الفصل الأخير الاتجاهات الأكثر حداثة في مجال النقد الشعري المعرفي (cognitive) ويعرض رؤية بالاتجاهات المستقبلية للنقد الشعري المعرفي (cognitive). سيساعدك سرد المصطلحات التالي عرضها على الرجوع بسرعة إلى معاني وشروح الكلمات والمصطلحات الهامة (وهي تلك الكلمات والمصطلحات المكتوبة بخط غامق في النص) وإيجاد مواضع الإسناد التراقفي والتعريفات في سياقها. إنني أهدف من خلال هذا الكتاب تشجيعك على طرح أسئلة والانشغال بالأفكار وإعادة اكتشاف متعة ربط المبادئ العلمية بحب الأدب دون الرجوع إلى أي أحد.

إن الكتاب الذي بين أيديكم هو أول كتاب يصدر في مجال جديد وناشيء وبعض المواضع التي ستذكر في الفصول التالية سأقوم بتطويرها لتصبح نقاطاً هامة رئيسة للبحث والاستكشاف. بعض تلك المناطق ستفقد أهميتها بمرور السنين. إنني أحاول أن أمهد السبيل للباحثين القادمين في المستقبل وشعوري الخاص هو أن مجال النقد الشعري المعرفي (cognitive) يقدم طوق النجاة لكل شخص يعمل في مجال

الدراسات الأدبية ويمكن أن يجعل علم الأدب سهل المنال ويسيراً وأكثر ارتباطاً بالعالم خارج إطار الحياة الأكاديمية في المدرسة والجامعة. يدور الكتاب بالكامل حول القراءة الأدبية وما يفعله هو تقديم الدراسة الأدبية على نحو ميسر لجميع الباحثين كما يقدم علماً جديداً في مجالي الأدب والقراءة الأدبية. يطور النقد الأدبي بسرعة جوانب جديدة للبحث وفي طريقه ليصبح علماً قائماً بذاته. لكن في الوقت الحالي فإنه من الممكن الوصول إلى حافة البحث سريعاً في دراستك: كل شيء ما زال مؤقتاً جديداً مثيراً ومليء بالتوقعات أكثر من الدراسات المتخمة. إن هذا الكتاب يخطو خطواته الأولى داخل هذا الصباح المشرق الواعد.

obeikandl.com